التجديد في منظور الأدب الإسلامي

بقلم: د. وليد قصاب

إن صدور الأدب الإسلامي عن العقيدة، والتزامه تصورها الإيماني، لا يعنيان أنه أدب منغلق على ذاته، يسد نوافذه وأبوابه في وجه الثقافات الأخرى. إنه أدب منفتح مجدد، وهو أدب محدث، متطور، نام متحرك، وإنه ليرى في التجديد ضرورة من ضرورات الحياة، ولوناً من ألوان النظر والتأمل في الكون، لكشف الحجب عن الأسرار الدفينة، وفك القيود والأسداد عن الطاقات العجيبة التي أودعها الله في العقل البشري، وهو يعني تدفق ماء الحياة في العروق، واستمرارها في الجريان الصاخب البناء.

وإن الأدب الإسلامي لا يعادي التجديد ولا يرفضه، بل هو شديد الحماسة له، لا يتحرج من استخدام تقاناته المختلفة، ولا يضيق صدره بالانفتاح على مذاهب الفن جميعها، والاستفادة منها، ولكن ما يميزه من غيره، أنه يتعامل معها على بصيرة ورشاد، وأنه يملك معياره العقدي الذي يرشّد خطواته، فلا يزل ولا يطغى، ولا ينساق وراء الجديد انسياقاً أعمى، بل يمضي وراء النافع منه، الذي يشكل إثراء لتصوراته، وتشقيقاً في ضروبه وأشكاله.

إن الأدب الإسلامي لا يقبل الأشكال الجديدة لمجرد أنها جديدة، وهو لا يجري خلفها - على منهج الآداب المتحللة من الرؤية الإسلامية - لأنها نزعة طريفة نبتت هنا أو هناك، أو (تقليعة) غريبة حملتها هذه الفلسفة أو تلك، بل يحرص عليها ما كان فيها الخير والحكمة، لأن المسلم معني بالحكمة، بحّاثة عنها، أينما وجدها التقطها، وكان أحق بها من غيره، كما أنه معنيّ بالتحسين والتجميل، فهما من خصائص التصور الإسلامي.

ولكن الجديد - في المنظور الإسلامي - لا يعني الأحسن دائماً، وليس صحيحاً ما تقوله الحداثة

المعاصرة من أن كل تطور يمضي نحو الأمثل، مما يطوي احتقاراً للقديم، وعدّه لوناً من التخلف؛ ففي القديم والحديث من الحسن خَلاق، وفي كل منهما من القبح خلاق، وذلك أن الشرع هو وحده الفيصل في الحكم، فما وافق الحق فهو الحسن، وما تناكر معه فهو القبيح.

ولقد تطرف قوم من بني الحداثة عندنا في الإشادة بكل جديد، والترحيب بكل بدعة مستحدثة، والدعوة إلى هدم كل قديم، حتى بدا معيار الفن الرفيع عند طائفة من الغلاة نبذاً لكل عرف، واستهانة بكل موروث، ودعوة حمقاء إلى إفراغ الذاكرة الأدبية من كل قديم. ومن المتناقض العجيب أن هؤلاء الحداثيين الذين أخذوا على بعض نقادنا العرب عصبيتهم للقديم، هم الذين يطوون اليوم عصبية هوجاء لكل جديد، فيعدون معيار الإبداع الفني الخروج على كل تراث، والجري وراء كل بدعة.

إن موقف الأدب الإسلامي من قضية الإبداع الفني هو موقف التوسط والاعتدال، الوسط بين الثابت والمتحول، فهو - من جهة - رفض للسكون التام، الذي يعني الشلل والموت، وهو - من جهة أخرى - رفض للحركة العمياء، والقفز الأعشى الضرير. أي أنه أدب ملتزم منفتح متطور، ولكنه ليس أدباً منفلتاً «سائباً».

كما أنه منطلق من أن حركة أي تجديد يضبطها الإدراك الواعي العميق أن في ثقافتنا العربية الإسلامية ثوابت ومتغيرات. ثوابت دلت عليها نصوص قطعية، وأحكام صريحة واضحة، وهذا مما لا تجديد فيه ولا اجتهاد، إذ لا اجتهاد مع وجود النص. وهذه من سنن الله الثابتة المحكمة التي لا تبديل فيها ولا تحوير. قال تعالى: ﴿ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ (الإسراء: ٧٧) وقال عز وجل: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ (الأحزاب: ٦٢) وقال في موضع آخر: ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ (فاطر: ٤٣).

فالدعوة إلى أية قيمة تخالف ماهو من ثوابت العقيدة ليس تجديداً بل هو تجديف وكفر. وأما ماهو من متغيرات ثقافتنا، أي مما لم يرد فيه نص، أو لم يرد فيه نص صريح، قطعي الدلالة، فهو قابل للاجتهاد والتجديد، ضمن أصول وضوابط لا تخالف الثابت، ولا ماهو مفهوم من الشرع بالضرورة.

إن الأدب الإسلامي لا يتعصب للقديم تعصباً مطلقاً، ولا يتعصب للحديث تعصباً مطلقاً، بل هو يجتنب الوقوع في شرك أمرين يعدّ كلاً منهما غير إسلامي، لأنه لا يصمد أمام العقل والمنطق اللذين هما من صلب العقيدة ومرتكزاتها الأساسية، وهذان الأمران هما:

- العشق المطلق لكل من القديم والحديث.
- الاحتقار المطلق لكل من القديم والحديث.

إن في كل من القديم والحديث من الحق والخير نصيباً، وإن في كل من القديم والحديث من الشر والقبح نصيباً. كم في تراثنا الأدبي من نماذج خيّرة، وقيم فاضلة نحن حريصون عليها كل الحرص، ولكن كم في هذا التراث الأدبي من نماذج الأدب والشعر التي شكلت اعتداء على الدين والأخلاق، وعلى قيم المجتمع ومثله الفاضلة الأصيلة! كتلك التي تجدها في أشعار المجّان من أمثال

أبي نواس، وبشار، وابن حجاج، وابن سكرة وغيرهم. وفي بعض تجاوزات أمثال الحلاج والسهروردي وغيرهما.

وفي مقابل ذلك، كم في أدبنا الحديث من قيم هجينة رديئة حملتها إليه المدارس الغربية التي انطلقت أصلاً من تصورات فكرية تخالف قيم هذه الأمة وعقيدتها وذوقها! وكم فيه من النماذج الخيّرة الفاضلة التي جددت عن أصالة، وأبدعت عن وعي وإدراك، محتفظة بعراقتها، غير متنكرة لهويتها الفكرية الذاتية.

إن الأدب الإسلامي أدب منفتح على ثقافات العصر، لا يغلق أبوابه دونها، ولا يخشى منها. إن له من الأصالة والحيوية والقوة الذاتية ما يواجه به جميع الحضارات بلا خوف ولا وجل. وهو يدعو إلى قراءتها ومحاورتها والاستفادة منها، بل هو يعد هذه المحاورة وهذا الاطلاع جزءاً من رسالته.

إن الأدب الإسلامي أدب دعوة، وإنه لجزء من الدعوة حوار الأفكار والثقافات الأخرى، وبيان الرأي فيها، والتنبيه على ما فيها من حق أو باطل. وإن من منهجه الاستفادة مما في ثقافات الآخرين من خير أو حكمة، فالحكمة ضالته، وإنه لأحرص عليها من الآخرين.

ولكن حركة التجديد الإسلامي - كما ذكرنا - حركة مضبوطة رشيدة، فهي ليست «سائبة» من غير معايير، وهي لا تنظر إلى التجديد على أنه هدف في حدّ ذاته، وأنه تغيير للتغيير، وهي لا يمكن أن تقبل تطرف بعض الحداثيين الذين فهموا التجديد هدماً لكل قديم، وخروجاً على جميع ما سلف، وقطيعة مع الماضي، حتى كأن الماضي كله عند هؤلاء القوم منتبذ ساقط ينبغي اطراحه. حتى لقد سمعنا واحداً من كبراء الحداثة - هو أدونيس - يقول: «لسنا من الماضي.. اللاماضي هو سرنا، الإنسان عندنا ملجوم بالماضي، نعلّمه أن يكسر اللجام ويجمح.. ونحن هدامون.. كل ما هو موجود بالوراثة، بالتقليد، بالعادة، يجب أن يعاد النظر فيه، أن يُرفض. هذه طريقنا.. الوراثة، التقليد، العادة؟ يا لهذه المستنقعات المقدسة، ويا لمأساة الإنسان التي يجابهها في مجتمعاتنا العربية»[1].

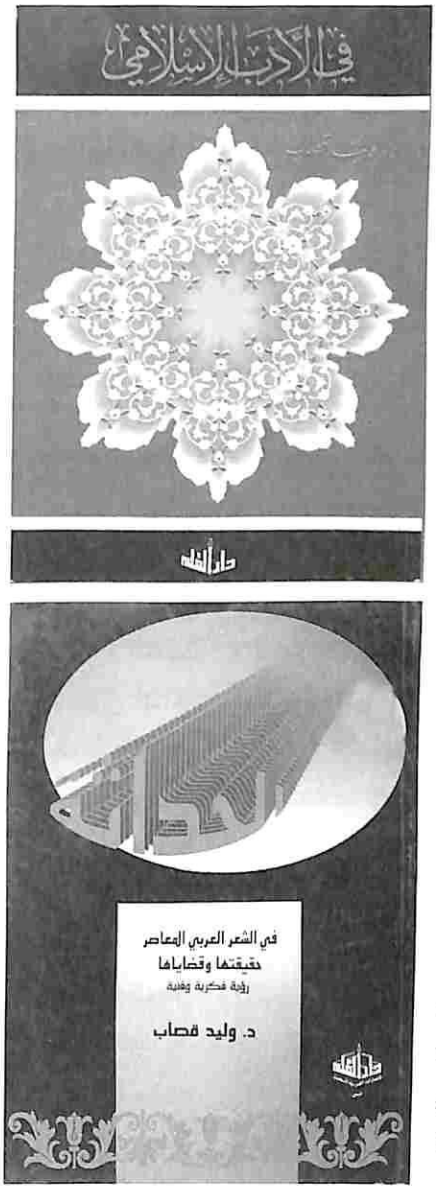

كذا يفهم كبراء الحداثيين التجديد، خروجاً على الأعراف والتقاليد، وعلى القيم والمثل، والأديان والشرائع. هذا كله ليس من التجديد في شيء.

إن تجديداً يمر على جثة الأمة - بما تحمل من التراث وعراقة وتاريخ - هو الانتحار والتبديد..

إن التجديد - في منظور الأدب الإسلامي - حرية وقيد، أو هو حرية غير مطلقة في أي شيء. كل حرية تضبطها أصول وقواعد، وتسمى مع ذلك حرية. إن حرية التجديد التي يدعو إليها الأدب الإسلامي يحوطها سور المحاكمة العقلية الواعية، وتحرسها - حتى لا تضل ولا تخزى - معايير عقدية من سنن الله الثابتة في الكون، تحدد ما يؤخذ وما يطرح.

وإذا كانت الحداثة الوهاجة التي تتصدر واجهة الفكر العربي المعاصر، ويروج لها باستمرار، هي هذه الحداثة الهجينة الوافدة[٢]، فإن هذا التطرف البغيض لا ينبغي أن يحملنا في المقابل على تطرف مماثل، فنسدّ نوافذنا في وجه كل حداثة، ونستدبر الجديد، وننطوي على اجترار كل قديم وتعظيمه وتبجيله.

إن الحداثة الحقيقية تعني العيش في العصر، وإدراك العالم من حولنا. والإحساس بنبض الحياة المتدفق الذي لا يمكن أن يهدأ. والحداثة تعني التجديد، ومن غير تجديد تتجمد الدماء في العروق، وتكف الحياة عن الحركة، ويصاب الفكر بالشلل والموت.

ولكن التجديد البناء هو الذي نسعى إليه، وله ضوابط ومعايير كما ذكرنا، إنه تجديد لا يجوز أن يطول هذه الثوابت، أو يخضعها للتغيير والتحويل، لأن هذه الثوابت هي التي تكون شخصيتنا، بل هي التي تجعل منا أمة ذات كيان معين، وإن التلاعب بها - تحت مسمى التجديد، أو التحديث، أو التطوير، أو ما شاكل ذلك من هذه المصطلحات البراقة الوهاجة - ما هو من هذا كله في شيء، بل هو لون من تدمير الذات، وقتل النفس، والخروج من الهوية الفكرية، وإزهاق روح الشخصية العربية الإسلامية.

إن كل تحديث لا ينافي ثابتاً قطعياً من ثوابتنا العقدية والفكرية هو تحديث مشروع ما دام يحمل الخير، وهو عندئذ لون من التفكر والتدبر، ونحن مأمورون بذلك أمرًا. قال تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ وقال جل وعلا: ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾ (الأعراف: ١٨٥).

ولكن كل تحديث ينافي الثابت من عقائدنا ومثلنا هو تبديد وهدم، بل هو صبوء ومروق، وماهو من الحداثة أو التجديد في شيء.

ومن هنا كانت الحداثة التي نريد حداثة البناء والإنماء، حداثة يتوازن فيها عنصران هامان، هما الأصالة والتجديد، العراقة والمعاصرة، التاريخ والحاضر، حداثة لا تقطع الجذور، ولا تبت الأصول، ولكنها في الوقت نفسه لا تتجمد عند التراث، أو تكون نسخة أخرى منه. ولذا كانت الحداثة التي نريد قائمة على التخير والاصطفاء، من قديم وحديث، لا يتقهقر فيها سلطان العقل العربي المسلم أمام قديم لم يعد يناسب العصر، ولا أمام جديد قادم من شرق أو غرب، بل تحاكم ذلك كله إلى معيار الحق. ومقياس الحكمة والخير، مسترشدة بقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها كان أولى بها».

ونتوقع عندئذ - إذا فهم التجديد حق فهمه- أن يقدم لنا الأدب الإسلامي نماذج طريفة حقاً، نماذج نعرف فيها تراثنا وماضينا، ولكنها ليست إياهما، ولا صورة متكررة عنهما، نماذج تشبه الابن الذي ليس صورة طبق الأصل عن أبيه، ولا هو يشبهه ويحتذيه في كل شيء، ولكنه لا يتنكر له، أو تغيب منه ملامحه جميعاً، ولو كان كذلك، لا نلمح فيه أثارة من الآباء والأجداد لقلنا إنه لقطة هجين.

وينبغي أن نميز ونحن نحدِّث الأدب ونجدد بين أمرين: التجديد في المضمون والتجديد في الشكل، وأن نستحضر بشيء من الأناة والفحص أن الأشكال الفنية التعبيرية هي - باستثناءات قليلة[٣] - محايدة، لا تدخل في دائرة الاحتراس إلا يسيرا، ولكن التعامل مع المضامين هو الذي ينبغي أن يقع تحت بصيرة الوعي العميق، والإدراك اليقظ، والفحص المتأني الدقيق، لأنها نتاج تصورات فكرية خاصة، نتوقع أن تتصادم مع الإسلام في قليل أو كثير ■

الهوامش:

(١) زمن الشعر: ص ٢٤٠.

(٢) انظر ما كتبناه عنها في كتابنا «الحداثة في الشعر العربي المعاصر».

(٣) من هذه الاستثناءات مثلاً الغموض، والعبثية، واللامعقول، واللاوعي، واستعمال العامية، والتساهل في الخطأ اللغوي، وما شاكل ذلك. وقد عرضنا لبعض هذه المسائل في كتابنا «الحداثة في الشعر العربي المعاصر».